مشاكلنا العائلية

بقلم السيدة زاهية مرزوق

مشاكل الأسرة كثيرة ومتباينة ، وجراثيمها المنتشرة فى كل مكان تزعزع كيان المنزل المصرى وتهدم أركانه ، وقد عزا البعض أصل البلاء إلى المرأة ، وقالوا إن هذه المشاكل التى تزداد وتتكاثر فى حياتنا اليومية ، والتى تملأ قاعات المحاكم الشرعية إنما هى دليل على إخفاق المرأة العصرية فى القيام بأهم رسالة لها فى الحياة . وادعى البعض الآخر أن هذه المشاكل ماهى إلا نتيجة لسيطرة الرجل وأنانيته وحبه لنفسه وطغيانه على حقوق المرأة والأسرة .

وفى الحقيقة إن مشاكل الأسرة المصرية خليط بين هذا وذاك ، فنجد أن الحق للرجل وعليه ، والحق للمرأة وعليها ، وهذا طبعا يختلف باختلاف الظروف .

فنظام الحياة الاجتماعية قد تغير بما طرأ على المدنية المصرية من تغيير ، ومطالب الرجل فى المرأة اليوم غيرها بالأمس . فقد كانت المرأة تشترى بالمال كما يشترى أثاث المنزل ، ولقد كانت التعاليم القديمة تعدها لمثل هذه الحياة ، فالرجل كان المسيطر على كل شىء وهى الصاغرة الذليلة الملبية لطلباته ، المدبرة لمنزله ، المربية لأولاده ، فهى تحيا حياة آلية بعيدة عن الغذاء الروحى والعقلى . وهكذا رضيت المرأة بنصيبها الضئيل من نعيم الحياة . فاصبحت أما أكثر منها زوجة ، وخادما لمنزل الزوجية أكثر منها شريكة لزوجها فى الحياة . ورأى الرجل إذ ذاك أن يبعدها عن الحياة الفكرية والروحية التى تساعدها على النهوض بنفسها الى مستوى أعلى . فظلت حيث كانت الى أن ساعدها الحظ وسمح الرجل أن يتركها تنهض بحركة تعليمها وأعطاها قليلا من الحرية فى التفكير ، ففتح ذلك عينها للمطالبة بحقها الشرعى فى مشاركة الرجل لا فى حياته الجسمية فقط ، بل فى حياته الفكرية والعقلية والنفسية أيضا . فعل الرجل ذلك ولكنه نسى أن يعد نفسه لهذا التطور والاعتراف بالواقع . ونسى أيضا أن يعد المرأة لأن تكون خير مثال عملى لاعتراف الرجل لها بهذا الحق . فهى وقفت فى منتصف الطريق فتركت التعاليم

القديمة ولم تجد تعاليم جديدة يمكنها الارتكاز عليها فى تأسيس المثل الأعلى لمنزل الزوجية ، فأصبحت تطالب بالحرية والمساواة وهى لم تعد نفسها بعد الإعداد الكافى لحمل المسئوليات التى تترتب على هذه الحقوق ، وهى من الناحية الأخرى ليست بجدتها بعيدة عن مشاغل الحياة الخارجية لاهم لها إلا إدارة منزلها وتدبير سبل الراحة للزوج والأولاد ، ولاهى أيضا بالمرأة المتعلمة المدبرة القديرة على خلق جو سعيد وعيشة هانئة لزوجها وأولادها . وفى هذا الأمر قد اختلفت نظرة الجدة والحفيدة ، فالجدة كانت تنظر إلى الحياة نظرة الراضى بعيشته ، المستقر فى حاضره ، الآمل فى مستقبله ، بخلاف نظرة الحفيدة التى تجذبها الأهواء وتشغلها عن عملها المقدس كماليات الدنيا ، فتجدها لاهية عن الضروريات ، ناظرة للزواج إما كوسيلة للوصول إلى الحرية التى تسعى إليها بعيدا عن منزل الوالد الشديد ، أو كوسيلة لشراء أثاث حديث وملابس فاخرة ، فهى لا تقدر المسئوليات التى ستلقى على عاتقها ولا الآمال التى وضعت فيها .

وإذا مررنا سريعا على شئون الحياة لوجدنا أن المدنية تجبر كل فرد على أن يعد نفسه للحياة التى يريد أن يحياها : فالمهندس يدرس ويخصص نفسه لمهنته ، والمحامى يدرس ويتمرن ليكون قديرا على القيام برسالته ، وكذلك الفتاة يجب أن تدرس وتتخصص لتكون زوجة فأما .

وها نحن نرى المعاهد تفتح لتعد الفتاة بدورها للحياة ، ولكن أى نوع من الحياة ؟ هل تعدها للرسالة التى خلقت لها أم لشىء آخر ؟ وبنظرة بسيطة نجد الفتاة وقد اتجهت فى تيار خاطئ من التعليم ، فهى تطالب بتعليمها فنون المحاماة والتجارة والصحافة ، والطب والصيدلة وغيرها . ولكنها لم تفكر مرة فى أن تطالب بفتح مدرسة عليا لإعدادها للأمومة والزوجية إعدادا صحيحا . أنا لا أنكر على الفتاة التبحر فى العلم والتفقه فى أصوله ، ولكن الذى أنكره عليها أنها تستهين برسالتها الطبيعية وتطرحها زاوية النسيان كأن الادارة المنزلية من اختصاص الخدم ، وكأن تربية الأطفال من اختصاص الدادات ، وكأن تسلية الزوج من اختصاص المقاهى والبارات !!

حقيقة إن المنزل كان فيما مضى خير مدرسة لإعداد الفتاة للحياة الزوجية ، ولكن الحالة تغيرت الآن ، فقد تكدست مطالب الحياة وزادت تعقيدا ، وبذلك أصبح المنزل المصرى والأم المصرية غير كفيلين بإعداد المثل العالى من الزوجة العصرية التى يطلبها الرجل . ومن

الناحية الأخرى فإن الرجل لم يفكر يوما أن يعد نفسه هو أيضا للحياة الزوجية الحقة ولتربية أولاده وفهمهم الفهم الصحيح .

وهكذا يتقدم الطرفان للاشتراك فى حياة لا يقدران قيمتها ولا يشعران بمسئوليتها ، هذه الحياة التى كان يجب أن يكون أساسها التفاهم والثقة والتعاون والعزيمة الصادقة على أن يكون بناء الأسرة متينا لا تزعزعه زوابع المشاكل التى كثيرا ما تتعرض لها الأسرة .

والمرأة تبدأ حياتها الزوجية بعدم ثقتها بزوجها . وكم آلمنى سماع حديث السيدات ونصائحهن لى أثناء زواجى . فيقلن لى : لا تثق بزوجك فانه سيخونك يوما ما ، الرجال نوع لا يؤتمن . كونى على حذر دائما . وفى أى مجلس من مجالس السيدات إذا دار الحديث حول هذا الموضوع شعرت بهذه الأفكار السيئة تسرى فى الجميع . وكيف يمكن للمرأة أن تثق بزوجها إذا كانت مشبعة بهذه الفكرة من أول الأمر ؟ ؟ وفكرة أن الزوج له الحق فى أن يتزوج على زوجته ، وله الحق أن يطلقها بكل سهولة جعلت حياة الأسرة وخصوصا الزوجة عديمة الاستقرار ، قليلة التعاون . فهى لا تنظر للمستقبل ، بل أمامها الحاضر فقط . وهى لا توجه عنايتها إلى الحالة الاقتصادية للأسرة ظنا منها أن رخاء زوجها ضد مصلحتها . أعرف سيدة لا تعرف معنى الادخار فى حياتها المنزلية أو فى ملابسها ، فهى مبذرة إلى درجة الجنون . تصرف نصف دخل زوجها على زينتها وملابسها ، وإنى أعلم أن فى طاقتها أن تدخر ، وفى طاقتها أن تقتصد ، ولكن الشك فى إخلاص زوجها هو الذى يمنعها من الاقتصاد ، فانها إذا ادخرت استولى زوجها على النقود وأمكنه التزوج بأخرى . وحب الظهور والتمشى مع "المودة" فى أثاث المنزل من أهم متاعب الأسرة الاقتصادية ، أعرف سيدة من هذا النوع لذتها التغيير والتبديل بصرف النظر عن مالية زوجها ، فهى إذا خطر لها أن تغير حجرة الصالون غيرتها بدون استشارة الزوج وبدون أن تفكر من أين ستأتى بأقساطها الشهرية . حضر زوجها يوما من عمله فوجد أثاث منزله يستبدل بغيره فدهش لهذه المفاجأة ولكنه بعد الاستفسار وجد أن الزوجة فعلت ذلك لأنها استولت على إيجار أطيانها ، فدفعت القسط الأول واتكلت على مرتب زوجها فى بقية الأقساط .

ومن مشاكلنا الاجتماعية طريقة الزواج ، فهى تبنى عادة على المادة قبل أن تبنى على الروح والجوهر ، ويتناسب مقدار الاختلاف مع قدرة الزوج والزوجة المادية والاجتماعية .

فكلا الطرفين يعتقد أن الزواج غنيمة يجب الاستيلاء عليها قبل أن تفلت، فوالد الفتاة يرهق الزوج بطلباته من مهر وشبكة وخلافها، والزوج يرهق الوالد بطلباته من أثاث وكماليات، والفتاة ترهق الاثنين أولا وآخرا. فالطريقة المتبعة فى تجهيز الفتاة قبل الزواج تضع الأسرة المصرية فى مركز لا تحسد عليه. فالوالد تحت ضغط السيدات الجاهلات يضطر إلى إرضاء فتاته ولو أدى الأمر إلى إفلاسه، وننسى الجميع أن السعادة الزوجية ليس أساسها الأثاث الفاخر بل الوفاق والتفاهم والتضامن، فالفتاة لا يهمها إلا الاستيلاء على كل ما تقع عليه يدها من منزل والدها بدون مراعاة لظروف زوجها المستقبل وبذلك تضر الزوج والوالد معا.

لماذا تبدأ حياتنا الزوجية بتلك المظاهر الخالية من الأساس الصحيح للسعادة الزوجية؟

ولماذا لا يكون التفاهم الزوجى تاما قبل أن تشرع الأسرة فى بناء عشها؟ ولماذا لا تكون البساطة والأناقة والذوق السليم هى الحكم فى تأسيس بيت الزوجية؟؟

وإهمال الزوجة لنفسها إهمالا كليا بعد الزواج من العوامل التى تؤثر فى السعادة الزوجية فتجد الفتاة قبل الزواج تعتنى بنفسها وزيها وشكلها وجسمها، ولكنها تنقلب إلى العكس بعد استيلائها على الزوج المرغوب، وكأنها كانت ترى ضرورة هذا العمل لإغراء الزوج المسكين. فبالله كيف يكون حال الزوج لو اعتقد أنه كان فريسة لهذا الاغراء؟ فعلى الفتاة أن تعلم جيدا أن الزواج ليس النهاية بل البداية للحياة الحقيقية وأن فى مقدورها أن تجعل هذه الحياة سعيدة محبوبة للزوج شيقة فى نظره.

السيدة المصرية تهمل نفسها الاهمال كله فى بيتها وأمام زوجها، فهى لا تتزين إلا إذا خرجت لشراء حوائجها أو لزيارة الأهل والأصدقاء، و إذا فاجأها أحد بالزيارة تأبى مقابلته إلا بعد أن تعد نفسها لهذه المقابلة، أما زوجها فيدخل ويخرج ولا حساب له فى نظرها، يأتى من عمله فيجدها منكوشة الشعر قذرة الملابس فيشمئز من رؤيتها، وما أسرع أن يخرج ثانية إلى القهوة ليمتع نظره بمناظر أخرى وعلى ممر الزمن يمل رؤيتها، وربما أدى به الحال إلى كرهها.

ألا فلتعلم المرأة أن زوجها أحق بزينتها من سواه، ولتعلم أيضا أن هذا الزوج يحب التجديد والتنويع وهذا سلاح يمكن المرأة أن تستغله أحسن استغلال، يمكنها أن تكون ماهرة

فى تجديد منظرها . . فى تجديد زينتها . . . فى تجديد منزلها . . . فى تجديد طهيها ! ! فلكل جديد لذة ! ! ! وهكذا يمكنها أن تستعمل فنها وذوقها فى جذب الزوج للمنزل وخلق جوسعيد فى الأسرة .

وامتلاء البارات والمقاهى ودور اللهو والتسلية بالرجال ظاهرة اجتماعية خطيرة تهدد الأسرة وكيانها ، وقد عزا البعض ذلك إلى اخفاق المنزل المصرى فى الناحية الاجتماعية . و إنى أعتقد أنه إذا وجد الزوج ما يستهويه ويسليه فى المنزل لما عرف باب المقهى ولا عاقب نفسه بالجلوس كل يوم تلك الساعات الطويلة فى مكان معين على شكل معين .

فالرجل يترك منزله إلى الخارج لأن الحياة الاجتماعية فيه معدومة وممله ، ولأن الزوجة خالية الذهن من واجباتها الاجتماعية ، ولأن الشاب فى الأصل لم يعود أن يصرف وقت فراغه فى شىء نافع كالهوايات العملية مثلا ، تلك الهوايات التى ليس لها من أثر فى حياة الفرد الاجتماعية فى مصر .

ومن العيوب التى نجدها فى المرأة المصرية ، إظهار عدم قدرتها على إدارة شئون منزلها وتربية أطفالها . فهى تستقبل الزوج بشكواها من الخدم أو الأولاد ، غير مفكرة أن هذا من اختصاصها ، وأنها بذلك تعطى الزوج فرصة للتدخل فى أعمالها المنزلية ، فهى تركن إلى الزوج فى حل مشاكلها كبيرها وصغيرها . غير مميزة للظروف المختلفة ولا مقدرة لمقدار استعداده لسماع هذه الشكوى ، فالزوج التعب المنهوك القوى الذى يأوى لمنزله لتلمس الراحة ، لا يحتمل سماع المتاعب المنزلية .

وبعد فإرانى أشتد فى حملتى على المرأة ، وأخشى ألا يروق ذلك سيداتى خصوصا اللواتى لا يواجهن الحقائق . ولكن فى الحقيقة ليست المرأة هى العامل الوحيد فى هذا الخلل العائلى بل نجد من الرجل وأهله وأهل الزوجة وأقاربها ما يزيد هـذه المشاكل تعقيدا . فالرجل المبذر الذى يصرف معظم دخله على لذته الشخصية استهتارا منه بحقوق الأسرة ، والرجل الذى يقضى طول وقته إما على موائد الميسر ، أو فى الشراب أو السباق ، والرجل الذى لا يرعى حقوق الزوجية المقدسة وينتهك حرمتها ، والرجل المستبد برأيه الذى يسلب زوجته حقها فى إدارة منزلها ونصيبها فى تربية أولادها ، ذلك الرجل لا يمكن أن يعيش فى سلام ووئام مع الأسرة .

زاهية مرزوق